مفهوم العقل المستقبل عند محمد عابد الجابري ومسؤوليته في إخفاق الحضارة الإسلامية

أ.مخلوف حمودي
قسم الأدب العربي
جامعة البليدة

ملخص:

يعد محمد عابد الجابري رحمه الله، من أبرز أعلام الفكر الإسلامي المعاصر و أحد مناصري الإتجاه العقلي المتطرف ، و له مشاركة فعالة في محاولة تحديد الأسباب التي أدت إلى إخفاق الحضارة العربية الإسلامية في إنجاب العلم المعاصر، الذي كان سببا في تقدم أوربا و تمكنها من السيطرة على العالم ، بعدما كانت في مؤخرة السلم الحضاري بالنسبة للمسلمين و الهنود و الصينيين .

وقد ألقى الجابري المسؤولية على عاتق الفكر الصوفي الذي سماه بالعقل المستقيل، وهذا حكم قاسي و متطرف في رأينا،و من هنا حاولنا إبراز خطأ هذا الحكم المنطلق من الأسس التي قام عليها الاتجاه العقلي الذي ينتمي إليه الكاتب ،وذلك بإبراز،أهم الآراء الواردة في الموضوع من بعض أعلام الفكر الإسلامي،وعلى رأسهم العلامة محمد إقبال رحمه الله.

Résumé

La question qui préoccupe aujourd'hui plus que jamais les chercheurs dans le domaine de la pensée Islamique, est celle qui consiste à savoir pourquoi, savoir qu'est-ce-qui justifie ce déclin de la civilisation Islamique ? Dans le sens où elle semble incapable d'engendrer voir de promouvoir la science moderne?.Par contre l'occident, lui est arrivé a se conformer a cette science moderne, et ce malgré l'écart de développement et de progrès qui séparait les deux mondes, sachant que l'orient vivait son âge d'or quand l'occident sombrait dans l'obscurantisme du moyen âge mais à partir du 13eme siècle les choses ont commencé a changer ce qui marque le début de reconnaissance civilisationnelle occidentale. Beaucoup de penseur , de chercheurs et de spécialistes en la matière ont tenté de répondre à la question dont la réponse pourrait justifier le reverse qu'à subi l'orient par rapport à l'occident. Parmi ces

wondershare
PDF Editor

penseurs, Mouhamed Abd Eldjabiri, un penseur marocain à travers ses ouvrages intitulés « La crise de l'esprit Arabe » et a travers son projet il a essayé d'analyser cet état de fait à partir d'une méthodologie occidentale moderne étrangère à la culture Islamique. Ce qui a susciter notre catégorique concernant ce qu'il défend comme thèse. Car celle-ci se contredit foncière avec nos valeurs et notre civilisation Musulmane.

إشكاليّة البحث:

السؤال الذي شغل الباحثين في الفكر الإسلامي شرقًا وغربًا هو: لماذا أخفقت الحضارة الإسلامية في إنجاب العلم الحديث؟ بينما تمكّنت أوربا من ذلك، برغم الفجوة العلمية التي كانت تفصلهما.

فالحضارة الإسلامية سبقت أوربا في علوم الرّياضيات، والفلك، والطّب، والصيدلة ... وغيرها، حتّى القرن الثالث عشر ميلادي، وهو أمر يعترف به حتى خصوم الحضارة الإسلامية، غير أنّ هذا السبق سرعان ما توقّف لتتمكّن أوربا من اللحاق ثمّ القفز إلى دنيا العلم الحديث، محقّقة هذه الفجوة الواسعة بينها وبين كلّ الحضارات الأخرى. فكيف حدثت هذه المفارقة؟ هل انبثقت من أسباب داخلية تختلف في المجتمع الإسلامي عنها في المجتمع الغربي؟ أم ترجع إلى عوامل خارجية تأثر بها وتفاعل معها أحدهما دون الآخر؟ وقبل أن نعرض مفهوم العقل المستقبل عند الجابري، ومسؤوليته في إخفاق الحضارة الإسلامية، نتطرّق إلى آراء بعض الباحثين في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر على السّواء، في أسباب إخفاق الحضارة الإسلامية.

أوّلا: أسباب إخفاق الحضارة الإسلاميّة عند بعض المفكّرين:

1- رأي أبي الحسن النّدوي:

يقول أبو الحسن علي الحسن الندوي: « الحقيقة أنّ انحطاط المسلمين وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم من بعد انسحابهم من ميدان العمل والحياة أخيرا، حادثا من نوع ما وقع وتكرّر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم وانقراض الدول والحكومات وانكسار الملوك والفاتحين، وانهزام الغزاة المنتصرين، وما أكثر ما وقع هذا في التاريخ ».[1]

Wondershare™
PDF Editor

ثم يضيف قائلا :« لم يكن هذا يخص العرب وحدهم ، ولا يخص الشعوب والأمم التي دانت بالإسلام، بل هي مأساة إنسانية عامة، فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة لاتّخذ هذا اليوم الذي وقعت فيه – يوم عزاء ورثاء – ولبست الدنيا ثوب الحداد، ولكن ذلك لم يتم في يوم ،وإنما تدريجيا في عقود من السّنين، والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث ،ولم يقدره قدره،وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه ». (2)

ولإدراك هذا المعنى الذي أشار إليه الأستاذ أبو الحسن علي الحسن النّدوي، نتصور لو أنّ هذا العالم الذي أصبح قرية صغيرة، بفضل ما عرف من التقدم الهائل في وسائل الاتصال التكنولوجية المعاصرة، كان على رأس قيادته رجلا كعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في عدله وإحساسه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وكل عمله من أجل أن يلقى الله وهو عنه راض، وهو القائل: " لو عثرت بغلة في العراق لحاسبني الله على عدم إصلاح طريقها"، ماذا لو كانت صُور الجياع الحفاة العراة من شعوب إفريقيا، وأمريكا اللاتينية تبثّ أمام أعين عمر رضي الله عنه ؟ ماذا لو كانت صور سجن أبو غريب في العراق، ومعتقل غوانتانامو تعرض أمام خالد بن الوليد، الذي رأى أنّ الموت على فراش الموت يكون للبعير، وأنّ أفضل حالة يلقى الرجل فيها حتفه هي أن يلقى الموت وهو حامل للسيف، مقبلا غير مدبر في سبيل الله ؟ لا شك أنّ غياب حكم الإسلام كارثة تخصّ الإنسانية كلها،ومن ثمة يحق لها بل يجب عليها أن تلبس ثوب الحداد على ما فات ،كي تبعث الأمل في نفوس الأجيال القادمة في استرجاع حكم الإسلام المفقود.

2- رأي جمال الدين الأفغاني 1839- 1897م :

يرى جمال الدّين الأفغاني أنّ ضعف المسلمين يتجلى واضحا في اختلاف كلمتهم وتفرق شملهم، « فعند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة »، و« انحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك » بدأ التقهقر والانحطاط. وقد نشأ عن التشتت السياسي الذي تجلى في كثرة الممالك، وعن التشتت الديني الذي تجلى في كثرة الطوائف والمذاهب ضياع الحقيقة الدينية في صفائها، فلم يعد المسلمون

Wondershare™
PDF Editor

يعرفون دينهم إلا من خلال طقوس وشعائر وتعاليم روّجها رجال الدّين، وأساؤوا فهم العقيدة والشريعة، وبشّروا بمبادئ التواكل والقضاء والقدر، والاعتماد على الخوارق. فالضعف كل الضعف إذن كامن في إساءة فهم الدين، والقوة كل القوة في فهم الدين، ولا يمكن أن يفهم الدين الإسلامي إلا على أساس الوحدة والإيمان والعقل والعلم، وهذا ما قضى على كثير من العقول[3].

3- رأي محمد عبده 1849- 1905م :

يرى محمد عبده – رحمه- الله أن عهد الانحطاط بدأ مع عهد المعتصم، الذي سنّ خطة إبدال الجنود العرب بالجنود الأتراك، ففتح بذلك عهد الطغيان العسكري. ومع إيمان الشيخ محمد عبده برأي أستاذه الأفغاني في تعليل الانحطاط بانحراف المسلمين عن دينهم، إلا أنه كان يؤكد على أن المشكلة الحقيقية التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي مشكلة تربوية تعليمية، ذلك أنّ أساليب التعليم المتعبة والعقيمة في شكلها ومحتواها كانت مسئولة عن التخلف الفكري الذي لحق المسلمين[4].

4- رأي عبد الرحمان الكواكبي 1848- 1905:

ألّف الكواكبي كتابين أولهما بعنوان« أم القرى » وثانيهما « طبائع الاستبداد في مصارع الاستعباد »، عدّد في الكتاب الأول سلسلة الأسباب التي أدت إلى التخلف والتردي، منها: الجهل، وفقدان الرابطة الدينية، وعدم اشراك أهل الحل، والتقليد الأعمى، وغلق باب الاجتهاد، وانعدام الشورى. أما في كتابه الثاني فقد أعطى للتخلف سببا سياسيا، إذ أرجع أسبابه إلى قيام الحكومات المستبدة، فمن طبيعة الاستبداد تنشأ كل آفات التخلف بما في ذلك الجهل والجمود والانحراف الديني، ولذلك كان الإسلام يوجب على الحاكم استشارة الرعية[5]، قال الله تعالى: "**ولئن متم أو قتلتم إلى الله تحشرون**" آل عمران: ١٥٩ ، كما أن الإسلام لم يمنح رجال الدين الإسلامي أية سلطة دنيوية، وإنما حصر دورهم في التذكير بتعاليم الدين الإسلامي؛ فقد خاطب المولى سبحانه وتعالى نبيه محمّدا (صلّى الله عليه وسلّم) قائلا: "لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر" الغاشية: ٢١ – ٢٢. كما نبّه الكواكبي وحذر من مغبة السعي في التفاوت في الثروات، واعتبره

Wondershare
PDF Editor

دعامة كبرى من دعائم الاستبداد، وبالتالي دعامة من دعائم الجهل. فالتفاوت في الثروات مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، وهذا معنى الآية الكريمة: "أن رآه استغنى، إن إلى ربك الرجعى" العلق: ٦ – ٧.

5- رأي شكيب أرسلان 1869م – 1946م :

ألّف شكيب أرسلان كتابا ذاع صيته تحت عنوان « لماذا تأخّر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟ »، وخلاصة ما ذهب إليه أن تقدم المسلمين كان راجعا إلى الروح الجديدة التي بعثها الإسلام في نفوس معتنقيه، تلك الروح التي أحلت الهداية بدل الجهالة والوحدة بدل الفرقة، والرحمة بدل القسوة، وعبادة الله بدل عبادة الأصنام. أما تخلّفهم فيرجع إلى عدة أسباب منها: الجهل، وفساد الأخلاق عند العامة والخاصة، الهلع، والجبن، اليأس وضياع حقيقة الإسلام بين الجاحدين. أولئك الذين يولّون ظهرهم لكل تقدم ويعيشون في تقليد أعمى، والجاحدين الذين يحاولون التنكر لدينهم والارتماء في أحضان حضارة دخيلة.

هذه الآراء تعبّر عن وجهة نظر تلك الرعيل الأول من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، من دعاة الإصلاح والتجديد، وهي آراء مستمدة كلها من الدين الإسلامي، فبيت القصيد في مسألة التخلف كان مقرونا بعدّة ظواهر منها الانحراف الديني، والاجتماعي، والسياسي، والأخلاقي، والتعليمي.

غير أنّ أعلام الفكر الإسلامي المعاصر الذي بدأت بوادره مع بداية القرن العشرين مع محمد إقبال – رحمة الله عليه– والمودودي في الهند، وحسن البنا، وسيد قطب في مصر، ومالك بن نبي في المغرب، وغيرهم يرون بأن تلك الأسباب السالفة الذكر كانت نتائج لأسباب أخرى[6].

ثانيا: نقد العقل العربي عند الجابري:

نقف اليوم عند العقل المستقيل ومسؤوليته عن تخلف الأمة عند أحد المفكرين المعاصرين، وهو محمد عابد الجابري[7]، الذي كرّس جزءً من حياته في مشروع « نقد العقل العربي » [8] ، الذي جاء في أربعة كتب هي :

1- تكوين العقل العربي.
2- بنية العقل العربي .

wondershare PDF Editor

3- العقل السياسي العربي .

4- العقل العربي الأخلاقي .

وهو مشروع يرتقي بصاحبه إلى مستوى كبار أساتذة الفكر ورجاله الـذين تعتز بهم الأمة الإسلامية، وهو مشروع متعدد المجالات والجبهات تفتح الأبواب لجهود الباحثين الآخرين لإثرائه. والحقيقة أنّه طرق آفاقـا خـصبة وواعـدة، وأعماله تتدرج في مجال البحث الإبيستيمولوجي، الذي يتخـذ أدوات الإنتـاج المعرفي والفكري، لا منتجات هذه الأدوات موضوعا له، ويرى بـأن التـراث العربي الإسلامي اختص بثلاثة أنظمة معرفية هي:

1- النظام المعرفي البياني .

2- النظام المعرفي العرفاني .

3- النظام المعرفي البرهاني .

ويعرّف النظام المعرفي بأنه: « جملة من المفاهيم والمبادئ والإجراءات تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما، بنيتها اللاّشعورية ».[9]

1-النظام المعرفي القائم على البيان:

فالبيان كفعل معرفي هو الظهور وإظهار الفهم والإفهام، وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم العربية الإسلامية الخالصة، علوم اللغة وعلـوم الدين، وكنظام معرفي هو جملة من المبادئ والمفاهيم والإجراءات التي تعطـي لعالم المعرفة ذاك بنيته اللاّشعورية .[10]

2-النظام المعرفي العرفاني :

وأما العرفان كفعل معرفي فهو ما يـسميه أصـحابه بـ «الكـشف» أو «العيان»، وكحقل معرفي هو عبارة عن خليط من هواجس وعقائد وأسـاطير، تتلون بلون الدين الذي تقوم على هامشه لتقدم له ما يعتقـده العرفـانيون بأنـه «الحقيقة » الكامنة وراء ظاهر نصوصه. وكنظام معرفي يتمحور حول قطبين رئيسين: أحدهما يستثمر اللغة بتوظيف الزوج (الظاهر\ الباطن)، والثاني يخدم السياسة بتوظيف الزوج (الولاية \ النبوة) .[11]

wondershare
PDF Editor

3-النظام المعرفي البرهاني :

أما البرهان كفعل معرفي هو استدلال استنتاجي، وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الفلسفية العلمية المنحدرة إلى الثقافة العربية عبر الترجمة، ترجمة كتب أرسطو على الخصوص، وكنظام معرفي يتمحور حول قطبين أحدهما يخص المنهج ويوظف الزوج (الألفاظ \ المعقولات)، والآخر يخص الرؤية ويوظف الزوج (الممكن \ الواجب). [12].

وهنا نلاحظ تعدد مناحي كل من البرهان والبيان والعرفان إلى ثلاثة مظاهر هي:

أ- الفعل المعرفي .

ب- الحقل المعرفي .

ج- النظام المعرفي .

ويقول الجابري إنّ تقسيمه السابق ذكره،قد ورد عند القشيري، وأنه اهتدى إليه قبل اطلاعه عليه عند هذا الصوفي الشهير. [13] وهذا التقسيم الذي أورده القشيري هو: « العقل – و العلم – و العرفان » ، و ذكر القشيري النص التالي: « ... نور في البداية هو نور العقل، ونور في الوسط هو نور العلم، ونور في النهاية هو نور العرفان، فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة في حكم العيان ..» . [14]

ثالثا: مفهوم العقل المستقيل عند الجابري :

هو العقل المتنازل عن منهج البرهان واستسلامه إلى منهج العرفان، قصد الوصول إلى المعرفة. ويوضّح ذلك قائلا: « أما علوم العرفان فهي العقل المستقيل » [15]. و يضيف قائلا: " ومن التناقض أن تبحث فيها عن مدى ما كان يجب أن توفره من أسباب التقدم، فلقد كانت علوم العرفان بمنهجها وغايتها من أجل الآخرة وليس من أجل الدنيا؛ أمّا ما ارتبط بها من علوم الدنيا من الكيمياء، والتنجيم والفلاحة والنجومية والتطبيب .. الخ، فلقد كانت تصدر عن نظرة سحرية للعالم تقوم على الاعتقاد في إمكانية: قلب الأعيان وخرق العادات – انكسار السببية الطبيعية- وبالتالي فهي لم تكن علوما ولا كان بإمكانها أن تحقق ما يطلب من العلم تحقيقه .[16]

wondershare™

PDF Editor

فالجابري يرى في الجمع بين القيم الروحية والعلم ،تدخلا للغيب في المعرفة العلمية، ووجد هذا الجمع متأصلا في المواقف العرفانية، « مثل دمج الدين في الفلسفة» و« دمج الفلسفة في الدين»، ومبدأ تزكية النفس ..، فاشتغل بالاعتراض عليها، وتتبع كلام رجالاتها بالنقد ونسبهم إلى غياهب التضليل وظلمات السفسطة دافعا عن نفسه تهمة التحامل عليهم قائلا: " ما حاولنا القيام به ليس بهدف حرب إيديولوجية، بل هو في إطار تحليلنا النقدي للنظم المعرفية في الثقافة العربية".[17] والفصل بين القيم الروحية والممارسة العلمية، التي يدعو إليها الجابري في حقيقتها مستمدة من العلمانية، وهو يصرح بذلك في قوله: « إنّ الفلسفة في الأندلس فلسفة ابن باجة، وابن طفيل، وابن رشد، تأسست على العلم، على الرياضيات والمنطق، مما سيجعل منها فلسفة علمية وعلمانية ».[18]

لقد أقصى الجابري الإنتاج العرفاني إقصاء تاما، واعتبره دخيلا على الثقافة العربية الإسلامية، ومعلوم أنه ليس في التراث قسم أشد منه تعلقا بالقيم الروحية والمعاني الربانية، ولا أشدّ أخذا بهذه القيم والمعاني في العلوم، ونحن نقصد بذلك التصوف في أنقى معانيه وأصفى مشاربه، الملتزم بالكتاب والسنة.

ثمّ جنح إلى التّحفّظ بشأن القسم البياني، واعتبره علوما لا ترقى إلى درجة اليقين، ومعلوم كذلك أنّه ليس في التراث قسم أشدّ منه تشبّعا بالقيم العقدية ولا أشدّ تمسكا بهذه القيم في العلوم، وهو لا يستثني إلاّ القسم البرهاني على طريقة من اشتهر بالقول بضرورة الفصل بين الحكمة والشريعة من أمثال ابن رشد والجابري لا يخفي تأثره بابن رشد، ومن خلاله بأرسطو في هذا المجال.

والمعيار الذي استبعد به الجابري العرفان واستضعف البيان واستبقى به البرهان الخالص هو في نهاية المطاف « العلمانية». هذا ما حدا بـ" طه عبد الرحمن" أن يقول: " إنّ التّصوّر العلمي الأرقى للعقل الذي يدّعي الجابري تحصيله والتوسل به في بناء نظرية للعقل العربي مدخلا من جانبين:

أ- تقادم دراسات الابيستيمولوجيا التي استند إليها.

ب- فساد فهمه لعبارة " غونزيت" إذ حملها على نقيض ما تدل عليه.[19]

wondershare™

PDF Editor

واضح من كلام الجابري السابق أنّ العقل المستقيل هو « العرفان». والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو : هل العرفان هو نهاية البرهان؟ فالمصطلح الذي استعمله الجابري هنا يوحي بذلك، فكأن العقل البرهاني عندما يتوقف عند ظروف وظواهر معقدة، ونتائج مخالفة لمقدماته العقلية يستسلم للأمر الواقع ويلجأ إلى انتظار الحلول التي يقدمها العرفان لتلك المعضلات، وهذا ما حدث بالفعل للعلم الحديث بعد تجربة" ميكلسون ومورلي" في الفيزياء، والتي كانت مخالفة لكل المبادئ والمسلمات التي اعتمدتها الفيزياء أو الميكانيك الكلاسيكية، ولجأت عندها الفيزياء المعاصرة إلى التخلي عن كثير من مبادئ العلم الحديث كمبدأ العطالة، ومبدأ انحفاظ الطاقة، ومبدأ انحفاظ الكتلة ... فعالم الفيزياء "بلانك" قدّم لنا ثابتا فيزيائيا بقيمة محددة وهو لا يدري كيف يبرهن عليه، مع أن نتائجه جيدة، فقد توصل إلى ذلك عن طريق الحدس. وعالم الذرة « نيلز بور» قدم لنا تفسيرا عن حركة الإلكترونات من مدار إلى آخر عن طريق ما يسمى بحركة الطفرة، وهي حركة لا يمكن للعقل أن يبرهن عليها. وهذا المعنى أو المفهوم للعقل المستقيل نجده عند الصوفية وهم أصحاب المنهج العرفاني. فإنهم لم ينفوا العقل كلية، وإنما قالوا: العقل كالمطية تحمل صاحبها إلى باب السلطان ليدخل إلى رحابه بدونها ... فبأي وسيلة تكمل الطريق ؟! [20] وبالعودة إلى كلام الجابري السابق نلاحظ أنّه استعمل هذا المصطلح، وهو لا يقصد ذلك، فهو يرى بأنّ تكوين العقل العربي الذي أنتج الفكر الإسلامي برمته، يرتكز على ثلاثة أنظمة معرفية هي البيان والعرفان والبرهان، وهو في صراع داخلي دائم بين أجنحة إنتاج هذا الفكر؛ ولكن في النهاية كانت الغلبة للعرفان، واندثر البيان والبرهان عندما دخلت الأمة في مرحلة جديدة من مراحل تاريخها، إنها مرحلة الانحطاط. وهنا يحمّل الجابري النظام المعرفي العرفاني مسؤولية تخلف الأمة عن الركب الحضاري.

رابعا: مسؤولية العقل المستقيل في تخلف الأمة :

يقول الجابري في هذا الصدد: «إنّ المسلمين إنما بدؤوا يتأخرون حينما بدأ العقل عندهم يقدم استقالته، والتمسوا المشروعية الدينية لهذه الاستقالة، في حين

Wondershare PDF Editor

بدأ الأوربيون حينما بدأ العقل عندهم يستيقظ ويساءل نفسه، أما الرأسمالية فهي بنت العقلانية » .[21]

ويقول في موضع آخر: «لقد أصبح القياس **قياس الغائب على الشاهد**، الذي كان في الأصل أداة لإنتاج المعرفة بطريقة منتظمة ومتقنة حرفة كلامية، كلّ همّها حفظ رأي أو هدمه، وهكذا انتهى العقل العربي إلى نفس النهاية التي انتهت إليها العقلانية اليونانية، وكأنّه أخذ يلتهم نفسه . [22] وبدأ العقل المستقيل << الهرمسي>> الذي حمله الموروث القديم يحتل مواقع أساسية داخلها، أي داخل الثقافة الإسلامية من خلال ما يسمى بالتصوف السنّي ». [23]

واضح كل الوضوح أن الجابري يحمل العقل المستقبل مسؤولية تخلف الأمة وتعثر مسيرة الفكر الإسلامي وجموده وتحجّره.

خامسا: أسباب استقالة العقل العربي عند الجابري:

إنّ السؤال الذي طرح نفسه على رواد النهضة الإسلامية أعاد صياغته الجابري كما يلي: لماذا لم تتطور أدوات المعرفة (مفاهيم ، مناهج ، رؤية...) في الثقافة العربية خلال نهضتها في القرون الوسطى إلى ما يجعلها قادرة على إنجاز نهضة فكرية وعلمية مطردة التقدم، على غرار ما حدث في أوربا، ابتداء من القرن الخامس عشر؟ للإجابة على هذا السؤال يعود الجابري إلى التجربة اليونانية السابقة على مرحلة الحضارة الإسلامية، ويحاول استخلاص عناصر التقدم التي كانت سببا فيما وصلت إليه من تقدم في تاريخ الفكر البشري، وهو «الفلسفة»، ويصل إلى أنّ العلم يأتي في مقدمة هذه العناصر، حيث أن الفلسفة اليونانية بوصفها رؤية عقلية إلى الكون والإنسان، قد ارتبطت في نشأتها وتطوّرها بالعلم. فطاليس هو أوّل من تساءل عن العنصر الذي يمكن أن ترد إليه عقليا جميع أجزاء الطبيعة، ومظاهر الكون المختلفة، فالبحث في أصل الكون جاء تتويجا لملاحظاته العلمية، فقرّر أنّ الماء هو أصل الحياة. و ديمقريطس الذي قال بالذّرّات أو اللامنقسمات كوحدات أولى يتركب منها كل شيء في الكون. إلى هيراقليطس الذي لم يرى في الكون إلا التّغيّر والصيرورة، الشيء الذي يسجل تقدما هائلا على صعيد الفهم العلمي للظواهر الطبيعية، ثم

wondershare™

PDF Editor

الفيثاغوريين الذين رأوا الكون قائما كلّه على التناسب والتناغم؛ فقالوا بأن الوحدة العددية هي أصل الكون، فقفزوا بالفكر العلمي والفلسفي خطوة هائلة على سلّم التّجريد، والخطوة الهائلة التي خطاها أفلاطون بالفلسفة اليونانية ككل، فمعروف أنها ما كانت لتتحقّق لولا ما سبقها ورافقها من تقدم في الرياضيات، أولَم يكن مكتوبا على جدار أكاديميته: « من لم يكن يعرف الرياضيات فلا يدخل؟». وهناك علاقة بين أبحاث أرسطو في ميدان البيولوجيا« علم الحياة» وبين إنجازاته في المنطق والميتافيزيقا، ورؤيته العامة للكون. والسؤال المطروح لماذا لم يواصل الفكر اليوناني تقدمه المطرد؟ ولماذا استقال العقل اليوناني وحلّ محله اللاعقل « الغنوص» ؟

يجد الجابري الجواب عن تساؤله هذا جاهزا عند الباحث الفرنسي فيستوجيير[24] المختص في الفكر الهلينيستي، والذي يرجع سبب تفكك العقلانية اليونانية وانحلالها إلى انفجار داخلي يرجع إلى اعتماد العقلانية اليونانية على ديالكتيك الفكر والإعراض عن التجربة، التي هي الوحيدة قادرة على تصحيح مسار ذلك الديالكتيك، وفتح المجال للعقل ليراجع نفسه، وبالتالي ليتجدد وينمو. فإعراض العقل اليوناني عن التجربة واحتقاره للمعرفة الحسية جعل من الحتم أن ينتهي به الأمر إلى هدم ما بنى وتعويض ما شيّد [25].

هذا بالنسبة للأسباب التي أدت إلى استقالة العقل اليوناني وانهيار تلك الحضارة، فهو يبرز من خلال ما سبق أسباب النهوض، وأسباب الانحطاط كما رأينا.

سادسا: أسباب نهوض الغرب :

يقول الجابري: أما التجربة الأوربية الحديثة، فقد تلافت ما وقعت فيه التجربة اليونانية، إذ عملت على بناء العلم على التجربة منذ عهد غاليلي (1564-1642) الذي اعتمد في أعماله على التجربة باستعمال آلات صناعية يتم تحسينها باستمرار، وبتقدم العلم ذاته. هكذا دخل العلم والتقنية (التكنولوجيا) في علاقة جدلية، علاقة أخذ وعطاء لا نهاية لها. كما انتقلت الفلسفة من

wondershare™

PDF Editor

مرحلتها اللاهوتية إلى مرحلة جديدة، مع ديكارت الذي أعاد تأسيسها على العلم (الرياضيات والفيزياء)، فارتبط تقدمها بتقدم العلم كارتباط معلول بعلة.

ثم الفلسفة الإنجليزية التجريبية التي ارتبطت بالعلم مباشرة، وعقلانية ليبنتز الذي استلهم فلسفته في المونـاد « فلسفة الذرات الروحية » من التصورات السائدة يومئذ حول الميكروبات من جهة، ومن معطيات حساب النهايات الصغرى « حساب التفاضل والتكامل »، الذي ساهم هو نفسه في إنشائه مساهمة أساسية من جهة أخرى.

أما كانط فمعروف أن فلسفته النقدية مؤسسة كلها على فيزياء نيوتن ومفاهيمها النظرية « الزمان المطلق – المكان المطلق»، وتأتي الفلسفة الوضعية المعاصرة لتجسّم الارتباط العضوي بين الفلسفة والعلم. (26)

وفي مواضع عديدة من كتب الجابري يرى بأنّ عقلانية ابن رشد هي التي حرّكت وأيقظت الغرب ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر، عندما انتقلت الرّشدية إلى الغرب عن طريق توما الإكويني، وبالفعل فالوسط الغربي كان مهيئا داخليا لتقبل فكر ابن رشد، كما أن هذا الأخير خلق نوعا من اليقظة في المجتمع جعلت التيار الفكري الراكد يتحرك لوجود فرق في الكمون، وبعدها استلهم الفكر الغربي كل الأفكار الكامنة في الفكر الإسلامي، وأخذ يوظّفها لصالحه. فالجبر العربي من الخوارزمي إلى السّمَوأل المغربي الذي تصوّر ومارس منهج التحليل والتركيب في الرياضيات بشكل ناضج، قد استلهمته الحضارة الغربية في بداية نهضتها، وأعمال ابن الهيثم في الاستقراء العلمي والاعتبار التجريبي بطريقة علمية، فضلا عن نظرياته وأجهزته البصرية، التي استلهمها كل من ديكارت وتبناها واستعملها غاليلي في تجاربه. بالإضافة إلى الانجازات العلمية التي حققها في ميدان الفلك كلّ من البيروني والبتاني والبطروجي وغيرهم، ونحن نعلم جيدا أن كوبرنيكوس أخذ نظام كونه من البيروني والبتاني والبطروجي، وهذه حقيقة بارزة لا غبار عليها، ولا يخفى على أحد الدور الأساسي الذي لعبته نظرية كوبرنيكوس في تطوّر ونهوض

Wondershare
PDF Editor

الغرب من كبوته، فعلى ضوءها أسست العلوم الفيزيائية (الميكانيك الحديثة)، التي قادت العلم خلال قرون من الزّمن.

وخلاصة القول: إنّ تحميل الباحث "الجابري" لمنهج العرفان مسؤولية ما آلت إليه الأمة الإسلامية غير معقول، فاعتماد الأمة على العرفان في نهاية المطاف كان نتيجة وليس سببا، ومن شأن المهزوم أن يمد عينيه نحو الأفق بعدما خارت قواه فإنه ينظر إلى الغيب. وأغرب ما نقرأ للجابري قوله: «بعدما يتساءل الجابري قائلا: أين يقع العلم العربي من حركة الثقافة وبالتالي تطور العقل العربي؟». ثم يجيب قائلا: هذه العلوم قد بلغت قمتها مع بداية تاريخها، وأنّ العقل العربي لم يضف وما كان يستطيع أن يضيف جديدا إلى ما أبدعه فيها خلال عصر التدوين، لقد بقي سجينا لإنتاج هذا العصر، وهذا راجع إلى طبيعة موضوع هذه العلوم، وموضوع هذه العلوم العربية كان واحدا، أعني من طبيعة واحدة -إنّه-:

- النص اللغوي بالنسبة للنحو واللغة.
- النص الأدبي بالنسبة للفقه والكلام.

والتعامل مع النص يختلف عن التعامل مع الظواهر الطبيعية، التي هي موضوع العلوم الطبيعية – التي اعتمدتها الحضارة اليونانية والغربية – ومع الكائنات الرياضية، وهو اختلاف جوهري سواء من حيث المنهج أو من حيث الانتقال به من مستوى إلى آخر أعمق وأوسع .[27]

يفهم من كلام الجابري أنّ الفكر اليوناني كان موضوعه الطبيعة، وكذلك الفكر الغربي المعاصر والحديث، ولذلك فمعينه لا ينضب، وتساؤلاته ومشكلاته العلمية والفلسفية لا تنتهي عند حد، في حين كان موضوع الفكر الإسلامي النص، فكلماته ومعانيه ومشكلاته محدودة، وقد انتهت مع بداية النهضة، فما بقي للفكر العربي الإسلامي إلا الاجترار. وهذا غير صحيح، فالنص الديني المتمثل في كتاب الله « القرآن» وسنة رسول الله « الأحاديث النبوية» كانت ولازالت وستبقى ما بقيت السموات والأرض معينا لا ينضب، باقي ما بقي الزمن وما أبرزه ويبرزه الإعجاز العلمي في شتى المجالات خير دليل على ذلك. فمعجزة

Wondershare
PDF Editor

القرآن تتمثل في صلاحيته لكل زمان ومكان، وهذا يعني أنّه يبقى دوما وأبدا الإطار الصحيح والسليم الذي يجب أن يتحرك العلم داخله.

إنّ الإتيان على فهم كتاب الله عز وجلّ، لا يتأتّى لفهم أحد من البشر، وهذا ما جعل سيد قطب – رحمه الله– يقول: « كثيرا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسّها بأسلوبي البشري القاصر، المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني» [28]، فهذا اعتراف منه بأنه لا يمكن له ولا لغيره أن يأتي على معاني كتاب الله عز وجل، فكيف يمكننا أن نقول أنّ النص محدود كموضوع للبحث؟!!

وهذا الشيخ محمد متولي الشّعراوي – رحمة الله عليه– يقول في محاضرة تحت عنوان: « لماذا لم يفسّر النبي القرآن » ما يلي: « ...الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) لم يفسر لنا القرآن إلا فيما يتعلق بمعرفة الأحكام المطلوبة وحدودها، أما الكونيات فقد تركها لأنّه (صلى الله عليه وسلّم) لو فسرها لفسرها بمعناها الحقيقي الذي وصلت البشرية الآن إلى فهمه، وأيضا لما استطاعت العقول التي كان يخاطبها في وقته استيعاب المعنى المقصود منها بمثل ما يمكن أن نستوعب منه نحن الآن ....».[29]

أما فيما يخص النص اللغوي، فلا شك في أن أستاذنا الفاضل مطلع على فلسفة جاك دريدا وهي فلسفة كلها تهتم بالنص – أيّ نص كان–، فكيف ينتهي به الحكم على النص بمحدوديته كموضوع.

خاتمة البحث

وفي الختام للإجابة عن السؤال الذي طرحناه في بداية المقال عن أسباب تخلّف الأمة الإسلامية، فنترك الجواب للأستاذ محمد إقبال – رحمة الله عليه– حيث يقول:

«... إنّ الفلسفة اليونانية على ما نعرف جميعا كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، ولكن التدقيق في درس القرآن الكريم وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسهم التي نشأت ملهمة بالفكر اليوناني يكشفان عن حقيقة بارزة هي: < الفلسفة اليونانية، مع أنها وسعت آفاق النظر العقلي عند

Wondershare PDF Editor

مفكري الإسلام، غشت على أبصارهم في فهم القرآن » . ويضيف قائلا: «كان سقراط يقصر همه على عالم الإنسان، وكان يرى أن معرفة الإنسان معرفة حقه إنما تكون بالنضر في الإنسان نفسه- اعرف نفسك - لا بالتأمل في عالم النبات والهوام والنجوم». وما أشد مخالفة هذا الروح لروح القرآن الذي يرى في النحل على ضآلة شأنه محلا للوحي الإلهي، إذ قال تعالى: "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" النحل: ٦٨ -٦٩.

والذي يدعو القارئ دائما إلى النظر في تصريف الرياح المتعاقبة وفي تعاقب الليل والنهار والسحب والسماء ذات النجوم والكواكب السابحة في فضاء لا ينتهي.

وكان أفلاطون وفيا لتعليم أستاذه سقراط، فقدح في الإدراك الحسي ولأن الحس في نظره يفيد الظن ولا يفيد اليقين. وما أبعد هذا القول عن تعليم القرآن الذي يعد السمع والبصر أجلّ نعمة لله على عباده، ويصرّح إذا الله جل وعلا بأنّه سوف يسألهما في الآخرة عمّا فعلا في الحياة الدنيا [30]: " ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا" الإسراء: ٣٦ .

إنه جواب شافي وكافي ليس لنا ما نقول بعده، ورحم الله عمر بن الخطاب الذي قال: « نحن أمّة أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، فلما ابتعدنا عن كتاب الله فهما وعملا واعتبرناه نصا جامدا، تخلفنا وأذلنا الله ».

إنّ عمر لم يصل إلى ما وصل إليه عن طريق منطق أرسطو، وإنما وصل إليه بمنهج القرآن وحده، وكان محقّا عندما أمر واليه بحرق مكتبة الإسكندرية، فإنّ كان فيها شرّا فذاك ما يجب له، وإن كان فيها خير فإن الله أغنانا بكتابه.

والحقيقة أن الإشكالية التي طرحناها شكلت محورا للعديد من الأبحاث في الفكر الإسلامي المعاصر،ومشروع الجابري في مضمونه يحاول تقديم حلا لها على منهج المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على هذه الأمة في البحث

wondershare™

PDF Editor

في مشاكلها ،وقد انكشفت عورتهم على أيدي جهابذة الفكر الإسلامي من أمثال مالك بن نبي وغيره.

الهوامش :

1- أبو الحسن الندوي – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – دار الشهاب – عمار قرفي – باتنة الجزائر – 1987- ص 40.

2- نفس المرجع – ص 40، 41 .

3- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– مصر – مجلة التعريف بالإسلام – العدد 5 – 1956م ص 27.

4- أحمد أمين – زعماء الإصلاح في العصر الحديث – دار الكتاب العربي بيروت– بدون تاريخ – ص 59 .

5- نفس المرجع – ص 249 .

6- رشيد رضا – مقدمة كتاب : الرحلة الحجازية للأمير شكيب أرسلان – مطبعة المنار بمصر – الطبعة الثانية – 1352 هـ – ص 8 .

7- ترجمة حياة الجابري – انظر غلاف كتبه.

8- طبع المشروع في أربعة أجزاء – بمركز دراسات الوحدة العربية – بيروت لبنان وهو في طبعته الثامنة 2007م

9- م ع الجابري – تكوين العقل العربي – طبعة دار الطليعة – بيروت – 1986 ص 37.

10- م ع الجابري – بنية العقل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت لبنان – 1986 م – ص 574 .

11- نفس المرجع ص 575.

12- نفس المرجع ص 575.

13- نفس المرجع ص 300 الهامش 35.

14- القشيري – لطائف الإشارات – المجلد الثاني – تحقيق إبراهيم بسيوني – دار الكتاب العربي – القاهرة – ص 194-195.

15- م ع الجابري – تكوين العقل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – الطبعة الثامنة 2007 – ص 343.

wondershare™
PDF Editor

16- نفس المرجع – ص 343

17- طه عبد الرحمان – تجديد المنهج في تقويم التـــراث – المركـــز الثقـــافي العربي – بيروت لبنان – الطبعة الثانية ص 37.

18- م ع الجابري – نحن والتراث – قراءات معاصرة في تراثنا الفلـــسفي – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – 1986 – ص 174.

19- طه عبد الرحمان – المرجع السابق – ص 44.

– العبارة المقصودة هي :

" La logique est la physique de l'objet quelconque "

انظر :

Ferdinand – Gonseth- Les mathématiques et la réalité – Ed. Elbert Blanchard , 1974 page 154-173

20- محمد متولي الشعراوي – محاضرة تحت عنون : لماذا لم يفسر النبي صلى الله عليه وسلم القرآن – ألقاها بالجزائر – مطبوعـــة علـــى الآلـــة الراقنة.

21- م ع الجابري – بنية العقل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – الطبعة الثامنة – 2007 – ص 347.

22- نفس المرجع السابق ص 340.

23- نفس المرجع السابق ص 341.

24- فوستجير: باحث فرنسي مقتدر ، حقق النصوص الهرمسية و ترجمهـــا إلى اللغة الفرنسية في أربعة مجلدات ثم اتبعها بدراســـة عامـــة للفكـــر الهرمسي في أربعة مجلدات أخرى، انظر:

Le R . P . Festugière . O . P : La révélation d'hermes . Ed . Gabalda . PARIS 1944-1949

25- م ع الجابري – تكوين العقل العربي – ص 338.

26- م ع الجابري– نفس المرجع السابق ص 338.

27- م ع الجابري – نفس المرجع السابق ص 340.

wondershare™
PDF Editor

28- سيد قطب – في ظلال القرآن – الجـزء الرابـع – دار الـشروق – بيروت لبنان – الطبعـة 11 – 1985- تفـسير سـورة الرعـد – ص 2038.
29- محمد إقبال – تجديد الفكر الديني في الإسلام – ترجمة عباس محمود – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1955 – ص 8.
30- محمد إقبال – نفس المرجع ص8

wondershare™
PDF Editor